حلفاء ...

طه حسين
جريدة البلاغ
١٤ مارس ١٩٤٦

رئيس وزرائنا لبق ما في ذلك شك، قد جرب المصريون لباقته منذ أكثر من ربع قرن، منذ شارك في الحكم وزيرًا، ومنذ سيطر على الحكم رئيسًا للوزراء، بل منذ كان عضوًا في الوفد، ومنذ فصل عن الوفد، بل منذ ائتلف مع المؤتلفين، واختلف مع المختلفين، بل منذ رأى نفسه زعيمًا ليس فوقه زعيم، ومنذ رأى نفسه جنديًّا يعمل تحت رياسة هذا وذاك من الزعماء.

رئيس وزرائنا لبق ما في ذلك شك، جرب المصريون لباقته في جميع هذه الأطوار، وذاقوا مرارة هذه اللباقة كلما تولى الحكم أو شارك فيه، وذاقوا حلاوة هذه اللباقة كلما أُبعد عن الحكم وجلس في مرقبه ذاك من نادي محمد علي ينتظر الأحداث قبل أن تقع، ويُفسِّرها لجلسائه بعد أن تقع، ويرسل إلى الأهرام بين حين وحين كلمة حلوة مرة، ظاهرها فيه الرحمة، وباطنها من قبله العذاب، يعارض فيها الحكومة القائمة، ويلقي عليها دروسًا في السياسة مرة، وفي الاجتماع مرة أخرى، وفي الاقتصاد مرة ثالثة، وفي تدبير الميزانية مرة رابعة، ثم ينتظر ما يكون لكلمته تلك الحلوة المرة من صدًى في الحكومة، ومن صدًى في بيئات المال والأعمال، ومن صدًى في البيئات السياسية الشعبية. وربما انتظر ما يكون لها من صدًى في البيئات السياسية الأجنبية عامة، والبريطانية خاصة.

وهو في أثناء هذا كله يفرك يديه، ويباعد بين شفتيه، ويلقي كلمات هنا وهناك يجري بها لسانه، ويشك فيها جنانه؛ لأنه رجل لبق يُلمِّح

دائمًا ولا يُصرِّح إلَّا قليلًا.
رئيس وزرائنا رجلٌ لبق ما في ذلك شك، قد عرف المصريون لباقته حين شارك في تكوين الجبهة التي وثبت إلى الحكم في هذا العهد السعيد، شارك فيها صامتًا لا يقول، نشيطًا لا يهدأ، متحركًا لا يحب السكون، وعرف المصريون لباقته حين رفع مكرم باشا إلى السماء بعد خروجه من الحكم، وإبعاده عن الوفد، وإقصائه عن البرلمان.
رفعه إلى السماء ووقف حائرًا لا يدري في أي نجم من النجوم يتخذ له مستقرًّا ومقامًا؛ فقد كان يرى النجوم كلها ضئيلة بالقياس إلى المجد العظيم الذي اكتسبه مكرم باشا حين فارق الوفد، وحين انقلب على رئيس الوفد. وكان صدقي باشا — فيما يظهر — يذكر ذلك البيت المشهور الذي يحفظه تلاميذ المدارس الابتدائية في جميع الأجيال منذ وجدت المدارس الابتدائية:
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
والناس يبلغون الشباب، ويبلغون الكهولة، ويتقدمون في الشيخوخة، وينتهون إلى الهرم، وينسون كثيرًا جدًّا من الأشياء، ولكنهم يحتفظون بقليل من ذكريات الطفولة تطفو على ضمائرهم، وتجري بها أطراف ألسنتهم؛ لأن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر كما يقول الأساتذة لتلاميذهم في المدارس الابتدائية أيضًا؛ فقد كان صدقي باشا — فيما يظهر — يذكر هذا البيت كلما أحدث مكرم باشا حدثًا.
ولم يكن صدقي باشا في ذلك الوقت يؤمن بمكرم باشا؛ فصدقي باشا لا يؤمن بأحدٍ، ولا يؤمن لأحدٍ، وإنما يؤمن بنفسه ولنفسه ليس غير. كل شيء وكلُّ إنسان عند صدقي باشا وسيلة لا غاية، وسيلة لا أكثر ولا أقل، ينتفع بها ما أمكن الانتفاع بها، ثم يعدل عنها حين

يتاح العدول عنها.
فقد كان مكرم باشا العظيم عند صدقي باشا اللبق وسيلة لا أكثر ولا أقل، وكان مكرم باشا مفتونًا بثناء الرجل اللبق. وأي إنسان لا يُفتن بثناء صدقي باشا حين يفقد ثناء الجماهير؟ وأي الناس لا يزدهيه التقريظ يأتيه من نادي محمد علي حين يفوته التقريظ الذي كان يأتيه من بيئات الشعب؟
كان صدقي باشا يهدي الثناء، وكان مكرم باشا يتلقى الثناء، وكان أحد الرجلين يبتسم ساخرًا، وكان أحدهما الآخر يبتسم مفاخرًا، حتى إذا بدئ العهد السعيد وقفز مكرم إلى وزارة المالية فصال وجال وطلب الطعن والنزال، كان صدقي باشا من ورائه يدفعه ويرفعه، ويعد عليه ما يقول، ويحصي عليه ما يفعل، ويتربص به الدوائر، وينتهز به الفرص، وكان في الوقت نفسه يثني عليه أجمل الثناء، ويطريه أحسن الإطراء، فكان مكرم باشا سياسيًّا كبيرًا، وماليًّا خطيرًا. وقد يختلف صدقي باشا معه في هذا الأصل أو ذاك من أصول الاقتصاد، وفي هذا الفن أو ذاك من فنون المال، ولكنه لا ينكر براعة مكرم باشا في السياسة، وبلاءه في الوطنية، وإقدامه على جلائل الأعمال.
كان صدقي باشا يُظهر الرضا، ويُضمر السخط، ويُعلن الثناء، ويُسرُّ النقد، وكان مكرم باشا يندفع ويندفع، ولم يدفع مكرم باشا إلى جلائل الأعمال قط شيء كما يدفعه الثناء من حيث جاء.
وقد كان مكرم باشا رجلًا ضروريًّا تفرضه الظروف فرضًا، وتقتضيه الحياة اقتضاءً، فقد كان النقراشي باشا رئيسًا للوزراء، ولا بدَّ من أن يستقيل النقراشي باشا، ومن أن تُنغص عليه أمور الحكم تنغيصًا، وأي رجل أقدر على ذلك من مكرم باشا؛ فهو الشريك المخالف، والزميل المعاكس دائمًا، وإذن فليُثنِ صدقي

باشا وقد أثنى، وليندفع مكرم باشا وقد اندفع، وليشقى النقراشي باشا وقد شقيَ.
ولعل القرَّاء قد لاحظوا هذا التوافق الغريب الذي كانت تأتي به المصادفات دائمًا بين سياسة مكرم باشا داخل الوزارة، وسياسة صدقي باشا خارج الوزارة. كان مكرم باشا ينكر إبطاء النقراشي باشا في المطالبة بالمفاوضات، وكان صدقي باشا ينكر هذا الإبطاء في الأهرام، ويسميه سياسة كسب الوقت، فلما ضاق مكرم باشا بهذا الإبطاء، واستقال ليُكره النقراشي باشا على الإسراع بطلب المفاوضات، كان صدقي باشا مؤيدًا له وظهيرًا خارج ما كان يسمى يومئذ بالهيئة السياسية، وداخل ما كان يسمى يومئذ بالهيئة السياسية أيضًا، حتى غُلِب النقراشي باشا على أمره وطلب المفاوضات على كرهٍ منه. وكان مكرم باشا متحرجًا من الردِّ البريطاني على مذكرة الحكومة المصرية؛ يرى فيه قيودًا لا يحبها ولا يرضاها، ويودُّ لو أزيلت هذه القيود.
وكان صدقي باشا يرى مثل ذلك في الأهرام، حتى كان الناس يتساءلون عن هذا التوافق الغريب بين الرجلين العظيمين في شئون المال والسياسة والاقتصاد. والحق أن صدقي باشا كان له تلميذان بارعان؛ أحدهما: كان مكرم باشا، وكان بارعًا في السياسة والاقتصاد والمال، والآخر: النقراشي باشا، وكان بارعًا في الحزم والعزم، وفي الضبط والربط، وفي تسليط الشرطة على نفوس الشباب لتُزهق، وعلى دماء الشباب لتُراق، وعلى رءوس الشباب لتُهشم، وعلى أعضاء الشباب لتُحطم محافظة على الأمن وإقرارًا للنظام دائمًا، وبرًّا بمصر والمصريين على كل حال.
وكان الأستاذ العظيم ينظر إلى تلميذيه العظيمين نظرة عطف وحنان، فيها ملاعبة ومداعبة، يغري أحدهما بالآخر، ويهيج أحدهما على

الآخر ليضحك منهما، وليضحك غيره منهما، كما يفعل الأب الكريم حين يداعب أبناءه البررة الأوفياء.
ولم يكد وزير خارجيتنا السابق يقول ما قال في لندرة حول مجلس الأمن: أمختصٌ هو بأحداث مصر والشرق العربي أم غير مختص؟ حتى ثار الرجلان العظيمان، ثار الأستاذ في نادي محمد علي، وفي الأهرام، وفي مجلس النوَّاب، وثار التلميذ في ناديه وصحيفته وفي الوزارة، ثم استقال، وأُحرج التلميذ العظيم الثاني بين فكاهة أستاذه صدقي باشا ودعابة زميله مكرم باشا، وما ينبغي لزميله الآخر بدوي باشا من الاحترام والوفاء أثناء غيبته على الأقل.
وكذلك لها الأستاذ البارع بالتلميذين البارعين، وكان كلما لها لم يكتفِ باللهو، وإنما يسجل الحوادث، ويستخلص النتائج، وينتظر دورة الفلك، حتى كان يوم ٩ فبراير، فبلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطُّبْيَينِ، وفاض الإناء، وأجمع نادي محمد علي على أن وزارة النقراشي باشا لم يبق لها في الحكم مقام. ولم يكد الأسبوع ينتهي حتى كان مكرم باشا قد استقال، وحتى كانت الوزارة كلها قد انهارت انهيارًا، وحتى كان الأستاذ العظيم قد جلس على كرسيه القديم، وأخذ في يديه القويتين وزارة المالية ووزارة الداخلية.
فأمَّا الرياسة فقد وضعها في قلبه وفي رأسه، وفي كل جزء من أجزاء شخصه العظيم، ومنذ ذلك اليوم أخذ الأستاذ يعلم تلميذيه كيف يكون الحزم والعزم، وكيف يكون الضبط والربط، وكيف يكون حفظ الأمن وإقرار النظام، وكيف يكون تدبير المال وإصلاح الاقتصاد، والتلميذان ينظران وينتفعان ويستعدان ليوم قد يأتي بعد انتظار طويل أو قصير لينتفعا بالدروس التي تُلقى عليهما الآن.
والواقع أن الأحداث التي أطاحت بوزارة النقراشي باشا قليلة جدًّا بالقياس إلى الأحداث التي تثبت صدقي باشا في الحكم، وتمنحه ما

يريد وما لا يريد من النصر والتأييد. وقد كان صدقي باشا أستاذًا بارعًا بأدق معاني الكلمة وأروعها، فهو لم يشرك النقراشي باشا معه في الحكم؛ لأنه لم يرد أن يحمل أوزاره وأوزارًا مع أوزاره، ولم يرد أن يشارك في تبعات ٩ فبراير؛ لأن ما كان وما هو كائن وما سيكون من التبعات يكفيه، ولم يشرك مكرم باشا معه في الحكم؛ لأنه لا يريد أن يأتيه التنغيص من خارج الوزارة، ولو قد أشرك مكرم باشا في الحكم لاستقال مكرم باشا في ٢١ فبراير، ولاستقال مكرم باشا بعد حوادث الإسكندرية، ولاستقال مكرم باشا أول أمس حين أثيرت في مجلس النواب قصة مجلس الأمن. وكذلك استطاع صدقي باشا أن يجنب وزارته ثلاث أزمات في أقل من شهر. فوَازِنْ أنت بينه وبين تلميذه النقراشي باشا البسيط.

وربما كان موقف صدقي باشا من قصة مجلس الأمن هذه من أروع المواقف وأجدرها بالإعجاب؛ فهو قد أقام الدنيا وأقعدها مع مكرم باشا احتجاجًا على وزير خارجيتنا السابق، ولكنه نهض بأعباء الحكم قبل أن يفصل في هذه القضية، وعاد وزير خارجيتنا السابق إلى مصر قبل أن يفصل في هذه القضية أيضًا، ونظر صدقي باشا فإذا هو بين رجلين كلاهما خليق بعنايته، وكلاهما يضطره إلى التحفظ والاحتفاظ.

ولذلك شُغل صدقي باشا يوم الثلاثاء فلم يحضر مجلس النواب، ورؤساء الوزارات يشغلون متى أرادوا، ويفرغون متى أرادوا؛ فقد شُغل صدقي باشا إذن يوم الثلاثاء وترك أمر هذه القضية لأستاذنا صديق الطرفين، أو صديق الأطراف الثلاثة وزير الخارجية القائم. وقد نفذ الأستاذ من هذه القضية كما ينفذ السهم من الرمية، فاستفسر بدوي باشا، وتلقى منه التفسير، وألقاه على مجلس النواب فرضي المجلس، وشكر الوزير السابق، وسخط مكرم باشا، ولكنه

أُكره على الصمت إكراهًا، ثم خرج فكتب كتابًا إلى صدقي باشا تلقاه صدقي باشا باسمًا ودسَّه في درج من الأدراج، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

أترى إلى هؤلاء الأصدقاء الأعداء؟! أترى إلى هؤلاء الحلفاء الخصوم؟! أترى إلى هؤلاء الذين يتعاونون أمام الناس ويخذل بعضهم بعضًا من وراء الستار؟! أترى إلى هؤلاء الذين أقاموا العهد السعيد ثم جعلوا يتهالكون على ما فيه من حول وطول من حكم وسلطان؟! إنهم سيفاوضون البريطانيين غدًا أو بعد غد ليستخلصوا منهم حقوقًا كاملة في الجلاء التام ووحدة وادي النيل.

سيذهبون إلى المفاوضات مجتمعين في ظاهر الأمر، مختلفين في حقيقة الأمر، كلهم ينتهز الفرص، وكلهم يتربص الدوائر، وكلهم رقيب على أصحابه، وكلهم خائف من أصحابه، وهم — بهذه الحال الرائعة من الوفاق الذي يخفي الخلاف، ومن التعاون الذي يخفي التدابر — سيفاوضون الإنجليز ليستخلصوا منهم حقوق مصر في الجلاء ووحدة وادي النيل!

عفا الله عنهم، أليس من الخير أن يبدءوا فيفاوضوا أنفسهم ليستخلصوا من أنفسهم للشعب المصري حقَّه في أن يكون حرًّا كريمًا، يحكم نفسه بنفسه ولنفسه، ولا تحكمه قلة ضئيلة قليلة تُظهر الائتلاف، وتُضمر الاختلاف، وتُضحِك الناس لا من نفسها فحسب، بل من نفسها ومن وطنها أيضًا؟

ولكن هذه قصة أخرى.